"كلاسيكو العرب"

مُهداة إلى الصديق الإعلامي نادر أبو تامر.

أقرّ وأعترف أنني أُحب كرة القدم، واعترف أنه كانت لي تجربة في الماضي كلاعب كرة قدم، إلى أن أتى والدي رحمه الله، وقطع دابر هذه الموهبة وهذا المستقبل بقوله: "الفطبول بطعميش خبز". آه كم كان أبي مُخطئًا، وها نحن نرى المبالغ الطائلة التي تُدفع للاعبي كرة القدم اليوم.

لا تأخذوا الانطباع من حديثي أنني كنت لاعبًا لا يُشَقُّ له غبار. اعترف أنني كنت أسافر بأوقات متقاربة -قبل عصر الكورونا- إلى خارج البلاد لمشاهدة مباريات كرة القدم، وخاصة فريق روما الإيطالي المفضّل على أولادي.

ما الذي يجعل ملايين الأشخاص حول العالم يجتمعون لتشجيع رجالٍ لا يعرفونهم لوضع كرة جلدية في شبكة. أمر غير ضروري، غير أساسي ولكنه يعني كل شيء، انها العاطفة انه الشغف.

لا، لم آتِ هنا لأبكي على الأطلال ولا لأندب حظي وأتحسّر على ماضٍ لم يتحقق. أتيت لأتحدث عن ظاهرة الاستحواذ التي تسيطر على جزء غير بسيط من مجتمعنا العربي في البلاد. لدي صديق، اعلامي مرموق، هو بنظري من أرق وألطف الأشخاص الذين قابلتهم بحياتي. كتاباته راقية، متحضّرة لطيفة، حتى يصل الأمر إلى فريقه الكروي، ريال مدريد. عندها ينقلب إلى انسان لاذع، متذمر وفي بعض الأحيان متشائم، وهو الذي كان بنظري رمزًا للتفاؤل والمحبة. ما الذي تفعله هذه الكرة الجلدية بالناس الطيبين!! للأسف صارت لعبة كرة القدم اليوم أكثر من لعبة، أصبحت حربًا أهليّة بين جماعات ومجتمعات.

صادف أن كنت يومًا ما في مقهى في مدينة بيت لحم مع أصدقاء لي، لاحتساء فنجان من القهوة والتحدث بالأمور اليومية. وصادف في ذلك اليوم وجود مباراة كرة قدم بين فريق برشلونة الإسباني وفريق آخر من دولة أخرى في نطاق تصفيات بطولة أوروبا. وطبعًا كان تواجدًا كثيفًا لجمهور برشلونة، بقمصانه المخطّطة باللون الأزرق والأحمر أو البوردو وشالاته الطويلة البرّاقة. وممّا أثار استغرابي أنني تعرّفت على بعض الوجوه المألوفة من أيام دراستي بالجامعة.

تبادلنا التحية وأطراف الكلام، وسمعت منهم محاضرة قصيرة وتلخيص أولي عمّا "سنواجهه" في هذه المباراة المهمة، لدرجة شعرت أنني موجود في جلسة ارشادية من مدير اللواء حول سياسة الدولة التربوية أو الأمنيّة. لقد حدّثني هذا الصديق القديم عن الخطّة والاستراتيجيات التي سيلعب فيها الفريق الاسباني، وذكر طرق الهجوم والدفاع واستراتيجيات الكرّ والفرّ، حتى خِلتُ أنّ "نابليون بونابرت" يرسم خطة اختراق سور عكا المنيع، أو أنّ الجنرال "أيزنهاور" يحاول دكّ الخطوط الدفاعيّة لألمانيا النازيّة.

واستمرّ صديقي في تحليله العميق لكل ما سيحدث ذاكرًا خطة اللعب 4-4-2 وهي خطة معتدلة، لا دفاعيّة ولا هجوميّة لكنها تفي بالغرض المنشود، غير ناسٍ أنّ فريق برشلونة يمثّل منطقة "كتالونيا" التي تسعى للحصول على الاستقلال من اسبانيا ذاكرًا احتلالها على يد الفاشيّة بقيادة الجنرال "فرانكو" وأنصاره من مؤيدي الفريق الملكي ريال مدريد، العدو اللّدود.

كل هذا الوصف الدقيق المسهب، يرافقه صديقي بكلمات مثل "نحن" و "هم"، "سنقوم"، "سنضرب".. وما إلى ذلك من استعمال لضمير الشأن حتى خلت نفسي استعد لهجوم معاكس وراء خطوط العدو، وأني أنتظر أن يزوّدني بخوذة وبندقيّة حتى ننفّذ الهجوم المُباغت ونحتل هذا الحصن المنيع. وممّا أثار جنون صديقي أنني تجرأت وسألته بسذاجة وخبث: "أنت تكرر كثيرًا نحن ونحن، يعني أنت تأخذ الأمور بصورة شخصيّة أكثر من اللازم". عند سماعه كلامي استشاط غضبًا وثارت ثورته ووقف قائلًا: "من البداية شعرت أنك لست معنا، الحق عليّ الّي بشرحلك".

وغادر الطاولة وهو يتمتم كلمات غاضبة وغير مفهومة. شعرت أنني عميل مزدوج قد تم الكشف عن هويته على الملأ، ولاحظت نظرات الغضب والاستهجان من جمهور برشلونة الغاضب، ووجدت نفسي في مأزق لا أحسد عليه، فقلت محرجًا: "اعذروني على جهلي فأنا لا أفهم بكرة القدم" عندها فقط ابتعدت الأنظار عنّي متّجهة إلى شاشات العرض الكبيرة الموزّعة على جدران المقهى. عندها فقط تنفست الصعداء نادمًا على حضوري، لائمًا نفسي على هذا الخطأ الجسيم.

هذه الحادثة ذكرتني بسباقٍ للخيل في حلبة محلّية. كان الفوز حليف حصان سريع من بينها ممّا جعل شابًا يافعًا من بين الحضور يقفز فرحًا وهو يكبّر ويصفّق ممّا جعل بعض الحضور يظنّ أنه صاحب الحصان الفائز. وعندما سأله أحد الحاضرين: هل الحصان لك؟ فقال: لا، لكن اللجام لي! لا شيء أشبه بصاحب اللجام اليوم من جماهير كرة القدم المتعصبين لفرقهم.

لا يقتصر الأمر على هذه الاحتفالات داخل المقاهي أو البيوت التي تتعالى منها الصراخات والهتافات، بل تخرج الجماهير العربيّة تجوب الشوارع بعد انتهاء المباراة كأنه قد تم تحرير الأندلس واستعادة الديمقراطية في البلاد العربية.

لست ضد كرة القدم ولست ضد ريال مدريد أو ضد برشلونة. ولكن ما يزعجني أن تتحول لعبة كرة القدم لأكثر من لعبة تشغل جماهيرنا عن قضايانا الاجتماعيّة والسياسيّة وهموم شعبنا المستعصية. ما يزعجني أن يعرف أولادنا "ميسي" أكثر من معرفتهم لعمر بن الخطاب، وأن يحفظوا أهداف "كريستيانو رونالدو" ومراوغاته أكثر ممّا يعرفوا فتوحات خالد بن الوليد وحروباته.

تذكير: ستقام الأسبوع القادم مظاهرة لنبذ العنف المستأصل في المجتمع العربي. اقترح أن تقام المظاهرة في "الكامب نو " ملعب "برشلونة"، أو "البرنابيو" ملعب "ريال مدريد" لنضمن حضوركم.

أرجو لكم مباراة شيّقة

أ.أيمن جبارة